رؤية في تحولات النظرية النقدية

د.ماري تريز عبد المسيح
كلية الآداب - جامعة القاهرة

لم تعد النظرية النقدية – راهنا - محصورة في مجال الأدب بل غدت مجموعة من المفاهيم والممارسات المترابطة التي تتجاوز السياج الفاصلة بين المعارف، فهي تجمع الدراسات الأدبية، واللغوية، والفلسفية، والنفسية، والاجتماعية، بل صارت الآن تحاور النظريات العلمية والتكنولوجية خاصة بعد ظهور النصوص الرقمية. وفي الواقع، فالتقارب بين الدراسات الأدبية والفلسفية كان قد بدأ في المدارس الأوروبية منذ بدايات القرن العشرين في كتابات فالتر بنيامين Walter Benjamin، و ثيودور أدورنو Theodor Adorno، ثم في كتابات هايديجار Heidegger، وجادامر Gadamer، ليلحق بهم رولان بارت Roland Barthes، وجاك دريدا Jacques Derrida، في فرنسا ومدرستي فرانكفورت Frankfurt وكونستانز Konstanz، في ألمانيا، وليتبعهم النقاد في المدرسة الأنجلو أمريكية خاصة مدرسة ييل Yale، ومن أهمهم بول يى مان Paul de Man. هذا التقارب بين الدراسات الأدبية وغيرها من المعارف في مجال الإنسانيات خاصة الفلسفية هو أهم ما يميز المدارس الفلسفية في مرحلة "ما بعد".

تقاربت الدراسات الأدبية واللغوية في المدارس الشكلانية التي سادت في أوائل القرن العشرين، بينما ظل هناك جدل قائم بين المتمسكين بالشكلانية في وجوهها المتعددة والرؤى النقدية الأخرى التي عرفت بالإنسية أو المدارس التفسيرية، أي أن الشكلانية لم تكن بمنأى عن التنظير الفلسفي. تأسست الشكلانية والمدرسة البنيوية – التي لحقتها – تأسستا على منظور يعتمد على استخراج بنية ما هو طبيعي وما هو ثقافي. تتطلع البنيوية إلى تعيين الأسس الفعالة الكامنة تحت سطح أنشطة الحياة كافة، بل وما هو وراء سلوك البشر، وهي – وفقا للبنيويين - قوى

فاعلة تتحرك وتتحول تبعا لقوانين عامة. فقد ذهبوا بأن القوى التوليدية تكمن في النص السفلي، لتغدو عملية الكتابة أو القراءة استخلاصا للرسالة من الشفرة الكامنة تحت السطح، لتبين كيفية تحول السفلي إلى نص فوقي. سعت البنيوية لفك الشفرات في المعارف الإنسانية كافة شاملة العلوم الطبيعية والإنسانية. والحافز الرئيسي لكل هذه الدراسات هو فك شفرة الأعماق من المظاهر السطحية، فالظاهر هو نتيجة لتحولات طرأت على الباطن، أو يعد قناعا له. وانبثقت الدراسات السيموطيقية – في ما بعد - عن ذلك النهج البنيوي، ونشطت في قراءة الصور المرئية الإبداعية، والتكنولوجية، والرقمية، لفك شفرتها في سياق اجتماعي، مما أزاح الفواصل بين الفنون الرفيعة والشعبية.

ويلمس العديد من النقاد علاقات قوية بين النهج البنيوي والماركسي والدراسات النفسية الفرويدية، حيث تسعى جميعا للكشف عن القوى التوليدية الكامنة خلف الواقع المرئي، وهي قوى محكومة بقوانين عامة تتحقق التحولات بموجبها. فالقوي التوليدية كامنة في النص السفلي، والنص العلوي هو تحويل أو إعادة تشفير للدوافع، لذا فعند القراءة علينا بترجمة السطح لا مجرد قراءته.

هنا يكمن موقع الجدل بين البنيوية وما بعد البنيوية، فبينما تتفق المدرستان في أن سطح النص هو نتاج لتحويل القوى الخفية، إلا أن التوجهات ما بعد البنيوية تذهب باستحالة التوصل إلى حقيقة مطلقة تتحكم في فيض المعاني الكامنة في النص. اتفقت مدارس ما بعد البنيوية – على اختلاف توجهاتها - على أن الواقع ليس كلا متكاملا، بل متعددا، يتسم بالشرذمة والتجزؤ، ويتغير بتغير الثقافات.

والمرحلة التي نطلق عليها "ما بعد" تشير إلى المدارس الفكرية التي تحررت من الشكلانية، والنـزعة الإنسية، ومحدودية النـزعة التاريخية، وقد واكب ظهور هذه المدارس حركة الحداثة في الغرب التي نجمت عن الفلسفة الوضعية المتنامية منذ عصر النهضة، وتأسس فكرها على المنهج التجريبي في العلم، والعقلانية في الفكر، ومركزية العقل الواعي. وترتب على هذا التوجه الجنوح إلى المركزية الأوروبية التي أعلت القيم والأسس الفكرية الجمالية الغربية على ما عداها من ثقافات – من جهة – وفرض المنهج العلموي على الدراسات الإنسانية من جهة أخرى.

وجاء هذا التحول من البنيوية إلى ما بعد البنيوية بعد الحرب العالمية الثانية، عندما وصل التشكك في فكر الحداثة أقصاه، حيث ترتب على هذه النـزعة اليقينية بالتفوق العلمي المنافسة الحادة بين الأمم على التفوق، ومن ثم التنازع على السيطرة،

مما أشعل الحرب وجلب الدمار للدول الأوروبية. تعددت أسماء النقاد والمفكرين الذين ساهموا في تجديد الفكر النقدي لكي يشكل مرحلة "ما بعد"، ولكن نلحظ أن أهمهم وهم جان فرنسوا ليوتارد Jean François Leotard الذي نظر لفكر "ما بعد الحداثة"، وجاك ديريدا Jacques Derrida، رائد مدرسة التفكيك التي نقضت البنيوية، وإلين سيكسو Helene Cixoux الكاتبة النسوية، وهذه هي أهم الأسماء التي وجهت فكر ما بعد البنيوية، نلحظ أنهم ينتمون إلى الفرنسيين الذين نشئوا في الجزائر المحتلة، وعاصروا الحكومة الاستعمارية، وعايشوا الإقصاء الذي مارسه الفرنسيين ذووا التوجهات العنصرية على الشعوب المحتلة، فكانت تلك هي اللبنة التي شكلت فكر ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، والحركة النسوية التي تضامنت مع الأصوات المقهورة.

اتسمت المدرسة الفرنسية ما بعد البنيوية بالتجريب، فسواء تعلق ذلك بالدراسات النفسية في ما قدمه لاكان Lacan، أو الفلسفية وما طرحه جاك دريدا(١) Jacques Derrida، جاءت طروحاتهم مناهضة للثوابت في الفكر الفلسفي، تلك الثوابت المؤسسة على مفهوم الذات الواعية، وشفافية اللغة مما أفضى إلى تغير ممارسات قراءة النصوص، واللاوعي في آن. فوفقا إلى لاكان تتماثل بنية اللاوعي وبنية اللغة، فعبر اللغة تتعلم الذات وتضفي على ما تعلمته صفة الذاتية – أي تتذوّت بها – ويتجلى ذلك في تذويت الاختلافات الجنسية(٢). ويختلف ذلك عن النموذج السوسيري للغة فوفقا له بإدراج الذات في تصنيف جنسي بعينه، سوف يتماهى أو تتماهى معه في علاقة تماثل تام، مثلما يتناظر الدال مع المدلول. هذا عن النموذج السوسيري، أما وفقا للنموذج اللاكاني فالدال ينسب إلى آخر في سلسلة متواصلة ومتغيرة من الدوال. يخلص لاكان من ذلك إلى أن اللغة ذات تأثير عميق على معايشتنا لأجسادنا وعقولنا.

جاءت تلك التحولات في القراءة نتيجة رؤية مغايرة للغة التي صارت محور الجدل الفلسفي، والنفسي، والاجتماعي. كان عالم اللغة السويسري فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure(٣) أول من أبرز كيفية إنتاج دوال اللغة بالمغايرة. فمعنى الكلمة يستمد باختلافه عن غيره من معاني الكلمات، ليغدو المعنى سلسلة من الاختلافات، التي تشكل بدورها سلسلة من التواشجات. ومن ثم، يحتوي كل معنى على معان أخرى، فالدال يحيل إلى دوال عن طريق التواشج، أو الاختلاف، مما يضفي على اللغة ثراء. ويبدو أن تعريف جاك دريدا Jacques

Derrida للاخ(ت)لاف، différance وهي كلمة تحمل معنى الاختلاف والإخلاف أي الإرجاء، وهو تعريف قد استوحاه من عملية التحولات التي أشار إليها سوسير في ما قبل، إلا أن المدلول لدى دريدا لا يتحدد بالدال، بل يغدو متروكا للمستقبل (أي ان الكلمة لا تحمل معنى مطلقا، بل تعد دالا متعدد الآفاق). فبالنسبة إلى دريدا، لا تعد الكلمات معلبات جاهزة الصنع ذات مرجعية محددة، بل هي أشكالا تحمل إمكانية التدليل على معان، وتتغير وفقا للسياق، والمحيط الدال، كما تنطوي على مناطق جديدة من التجارب، وتحمل أثارا من المعاني المغايرة التي تعرفها، فالكلمات يتحدد معناها وفقا للسياق، والموضع، والنبرة.

أدى تقارب العلاقة بين الفلسفة والنظرية الأدبية إلى تغيير ممارسات القراءة، ما كان له الأثر على الدراسات الكلاسيكية، حيث اهتم الفلاسفة المهتمين بتلك الدراسات بإشكاليات التأويل وعلاقتها بالأفق النظري للقراءة. على سبيل المثال، انشغل شلايرماخر F. Schleiermacher، وهو مؤسس الهرمنيوطيقا المعاصرة بإشكالية العلاقة بين ترجمة النصوص اليونانية وفعل التأويل، وهي إشكالية اهتم بها كل من هايدجار وجادامار عند قراءاتهم للنصوص اليونانية. ثم يعقبهما دريدا لإضفاء أبعادا جديدا على تلك النصوص الكلاسيكية، وفي استفادته من بعض المصطلحات لتدعيم طروحاته، وهو من أكثر الفلاسفة المؤثرين في القراءات المعاصرة للآداب الكلاسيكية، كما يتضح من كتابات الفيلسوفة الفرنسية سارة كوفمان Sarah Kofman، التي قدمت أهم القراءات لأعمال أفلاطونPlato[٤] وهي قراءة مناهضة لطرح هايديجار. بل أنها تعترف بفضل قراءة مارسيل ديتين Marcel Detienne، وجان بيير فرنان Jean-Pierre Vernant، في تقديم مفهوم *metis*، أو الدهاء المناور، الذي أقصاه أفلاطون من الفلسفة التي تتصف بالعلمية الصارمة لكونها تستند إلى نظرية معرفية episteme، ذات طابع تأملي. وعلى العكس من ذلك، ترى سارة كوفمان أفضلية استخدام الدهاء المناور للتوصل إلى ال "*poros*" أو "التوفيق" والخروج من ال "aporia" أو "الدوامة المفهومية" والترجمة تفتقد الكثير من ثراء معنى الكلمتين[٥].

كما ترتب على توجهات ما بعد البنيوية فتح الآفاق للفلسفات الغير أوروبية، والقراءات النقدية لعالم الجنوب للدخول في مناظرات مع النظرية النقدية الأوروبية. ومع ظهور كتاب إدوارد سعيد ***الاستشراق*** Edward Said, *Orientalism*[٦] سنحت الفرصة أمام الشعوب المحتلة ليتمثل صوتها على الصعيد العالمي، وتناهض

الأسس الفكرية للمركزية الأوروبية، في ما أطلق عليه لاحقا "ما بعد الكولونيالية" Postcolonialsim، وهي حركة لم تصوب سهامها نحو الفكر العنصري الغربي فحسب، بل النظم المحلية المستبدة والفكر الجامد أيضا. والكولونيالية هنا لا تشير فقط للمستعمر بمدلوله التقليدي، ولكن الكولونيالية تشير إلى من يملك القوى المهيمنة في المجتمع على الصعيد الدولي والمحلي. ودراسة علاقة القوى في المجتمع وكيفية اختراقها عبر الأنظمة اللغوية كافة، سواء كانت منطوقة أو مكتوبة أو مرئية دفعت إلى ظهور ما يعرف بالدراسات الثقافية، وهي إحدى التوجهات الجديدة التي تولدت عن دراسات ما بعد البنيوية.

ولكن الدراسات الثقافية لم تكن نتاجا لمدارس ما بعد البنيوية فحسب، بل نتاج للتحول إلى النهج التأويلي أيضا. ينسب البعض هذا المنحى التأويلي إلى كانط Emmanuel Kant، الذي ذهب بأن الواقع الذي نعايشه يتشكل وفقا للتصنيفات الذهنية وهي وفقا لكانط ثابتة وإعلائية. أما نيتشة Nietzsche، فقد أطاح بالحقائق المطلقة، والرؤية الكلية للتاريخ الذي رآه مجتزئا، كما ذهب بأن التجربة المعاشة تتشكل بإرادة القوة. أما ماركس وفرويد، فذهبا بأن ما يشكل الواقع بالنسبة إلى الرأي العام يتشكل بفعل قوى مجهولة لدينا. ترتب على هذا الطرح رؤية جديدة للغة، حيث صارت اللغة هي التي تشكلنا وليس العكس، وهي تشكلنا عبر الخطاب السائد في المجتمع، فاللغة هي المؤسسة للثقافة.

وبناء عليه، يتواجد الفرد في وشيجة من المعاني، والممارسات، التي نسجها المجتمع فهي المؤسسة للثقافة. ويعد ميشيل فوكو Michel Foucault أول من عرّف كيفية تشييد المعنى عبر الخطاب الذي تنسجه اللغة، والتي تشكل بدورها الثقافة. فلكل ثقافة أساليبها الخاصة في التعبير عن التجربة المعاشة ووضعها في إطار تصوري يقيم القواعد والشروط لما ينبغي قوله، وكيفية التحكم في القول وتنظيمه. ومن ثم، يعمل الخطاب على تشكيل التجربة المعاشة، وتحليل الخطاب يساعدنا على تعرف كيفية رؤية العالم وكيفية توزيع مراكز القوى وممارساتها. ويتم كل ذلك عبر اللغة، فهي التي تشكل تجربتنا المعيشية، فالثقافة ما هي سوى بنية لغوية. يتواجد الفرد في وشيجة من المعاني والممارسات التي نسجها المجتمع، والتي تشكل قوى مؤثرة على المستويين النفسي والإيديولوجي، بفعل استخدامات اللغة سواء كانت منطوقة أم مكتوبة أم مرئية. يغدو الواقع من حولنا نتاجا لتخيلنا وللإيديولوجيا المحيطة أو ما عرّفه في ما بعد فوكو بالخطاب الذي يشكل هذا الواقع.

تتزامن تلك الطروحات وظهور مفهوم النصية، الذي طرحه رولان بارت Barthes Roland، حيث يذهب بأن النص يعد نسيجا لخلاصة ما كتب مسبقا، وما يكتب حاليا – فلا نص دون تناص، والكتابة لا تنحصر في الحرف، بل في المنطوق والمسموع والمرئي، فالنص يخضع لعملية تشكل مستمر(٧). وترتب على تغير المنظور للغة إلى التأكيد على ضرورة دراسة طرق التأويل، حيث غدا القارئ جزءا من النص المكتوب، فالمشاهِد (بكسر الهاء) هو جزء من المشاهَد (بفتح الهاء)، فهو في تلقيه الرسالة يشارك في إنتاجها. وعمقت مدرسة كونستانز Konstanz، هذا الطرح بتركيزها على دور القارئ، استنادا إلى مدارس الفينومينولوجيا والهرمنيوطيقا التي شكلت مرجعيتها الفلسفية.

مهدت نظرية الفينومينولوجيا التي شاعت في منتصف القرن المنصرم لنظريات الاستجابة والتلقي، حيث ابتعدت عن الشكلانية التي ركزت على وحدة العمل بتشييد قواعد مجردة للأعمال الأدبية، ابتعدت عنها بتحويل الانتباه إلى العلاقة بين الوعي والنص، متبعة في ذلك طروحات الفيلسوف هوسرل، Husserl. ووفقا له، يغدو تحقق الموضوع أو النص مشروطا بالذات أو العقل الواعي. ولكن اختلف ما بعد البنيويين مع هسرل على مفهوم الحضور الحقيقي، مثلما في كتابات دريدا. أما منظري التلقي فاهتموا بكيفية التفاعل بين النص ووعي القارئ، بحيث يعد مشاركا في إنتاج التناص. وكان لهذا المنظور الأثر في ألقاء الضوء على صعوبة الفصل بين الشكل النصي وعملية التفسير، أو معاملة القراء بعمومية دون التنبه إلى انتماءاتهم الاجتماعية المتباينة. أما ما يجتمع عليه منظري نظرية التلقي والتفكيكيين، فهو اشتباك القارئ المتواصل مع المعنى الحرفي، والمعنى المجازي للنص، وفي ذلك نجد آثارا للطرح الهرمنيوطيقي الذي يذهب بأن كل فهم بشري يتأسس على انحياز" للحظة التاريخية". فوفقا إلى فلسفة جادامر Hans-Georg Gadamer الهرمنيطيقية، لا بد أن يشتمل الفهم على دمج الحاضر بالماضي، وفي عقد المقارنة والتباين بين حالات الفهم العديدة ما يفضي إلى التضامن البشري(٨). وبالتالي غدت علاقات القارئ بالنصوص جدلا مركبا تندمج فيه الذات والموضوع وفقا لتجربة كل منهما.

لم يعد التأويل محض تفسيرا للمعنى الملازم للنص، ولكنه مجرد افتراضا للمعنى في سياق العالم المفهومي للقارئ. واختفت فكرة القراءة البريئة أو المحايدة أو النص الموضوعي، فالكل نتاج لقوى ثقافية ونفسية. وعند تأويل الثقافة بقراءة التمثيل

الثقافي، تغدو الثقافة نصا، منظومة من الخطابات التي تشيد المباني، التي تشكل بدورها عالم الثقافة، وتتحكم في الممارسات الثقافية والمعاني المترتبة عليها. والتواشج في الخطابات الثقافية يتطلب قراءة السياق الثقافي قراءة تستخرج ما يقبع تحت السطح، وما يخترقه، بل على القارئ قراءة ذاته وهي تقرأ. ومن هذا المنطلق نشأت القراءات الموجهة إلى القارئ، والدراسات الثقافية.

وإن كانت مدارس ما بعد البنيوية قد أفلتت من نسق البنية لتقع في شراك ألاعيب اللغة، فقد كشف الفلاسفة الذين أنتجوا قراءات جديدة في الماركسية من أمثال لوي ألتوسير(٩) Louis Althusser وبيير ماشري(١٠) Pierre Machery واللذين وعوا بالممارسات الخطابية العاملة على إدماج الذات في بنية اللغة، كشفا عن أساليب جديدة للمقاومة. ففي "رسالة عن الفن" يذهب التوسير بأن تعرف الفن يفترض قطيعة مسبقة مع اللغة الإيديولوجية العفوية، واستبدالها بمتن من المفاهيم العلمية. وفي تطويره لهذه المفاهيم، تمكن ماشري من نقد العديد من المدارس النقدية في القرن العشرين، بدءا من هرمنيوطيقا جادامر Gadamer، وامتدادا إلى الجمالية التاريخية التي طرحها كل من ياوس Jauss، وإيزر Iser المنتميين إلى مدرسة كونستانز.

كما اعترض ماشري على المعاني المفتوحة التي راجت في بعض مدارس ما بعد البنيوية، وأكد على ضرورة فهم آليات إنتاج النص، حيث له علاقة ملتبسة مع مرجعيته الإيديولوجية. فالإيديولوجيا السائدة تنتج علاقات اجتماعية تحجب المتناقضات الاجتماعية، لقمع المسكوت عنه. لذا، فينبغي على القارئ عدم تلقي النص بوصفه موضوعا معرفيا، بل الهدف من دراسته هو الكشف عن قدرة اللغة على الإخفاء بإبراز فجوات الصمت الذي بها يكتمل النص، لأنه حدد مواضع عدم اكتماله.

على الرغم من اختلاف تلك النظريات النقدية في مرحلة ما بعد، إلا أنها تتفق في بعض الجوانب عند القراءة النصية، أهمها هو عدم محاولتها لإضفاء معنى نهائي للنص، أو إيجاد حلولا للملابسات والتناقضات بالنص، بل تؤكد على تفاوت فعل القراءة لدى كل قارئ، وتفاوت ملكات التخيل والتخييل، وتفاوت معايشتنا للتجربة النصية، إلى جانب الممارسات الخفية للأنساق الاجتماعية عبر اللغة وممارساتها.

طرأت تحولات عدة على الفكر النقدي في القرن العشرين، ونحن في مستهل القرن الواحد وعشرين ما زلنا نجد صعوبة في التوصل إلى نهج معرفي يتوسط هذه

الطروحات المتضاربة، نتيجة الحدود المتحولـة بـين المعـارف والثقافـات، واعتباطيـة اقتصاد السوق الذي صار يؤثر فـي كيفيـة تـداول المعرفـة، كمـا نجـم عنـه تفاوتـا فـي إمكانيات الحصول على المعرفة. فالخيار أمامنا إما أن نتمسك بالقديم الذي يمدنا بوهم الآمان، أو نوظف الثراء في النظرية النقدية لإنتاج توجـه نقـدي قـادر علـى الاسـتفادة بما يحيطه دون الوقوع في شرك التسليم المطلق بما أكتسبه.

الهوامش

1. Jacques Derida, *Of Gramatology,* Translated by Gayatri Spivak, Baltimore: Johns Hopkins UP, 1992.
2. Jacques Lacan, *Ėcrits: A Selection,* NY: Norton, 1982.
3. Ferdinand de Saussure, *A Course in General Linguistics,* NY : the Philosophical Library, 1959.
4. Sarah Kofman, *Comment s'en Sortir?* Paris: Galilée, 1983 ; « Beyond Aporia ? », Translated by David Macey, in *Post-Structuralist classics,* ed. Andrew Benjamin, London: Routledge, 1988: 7-44.
5. Kofman, 9.
6. Michel Foucault, *The Archaeology of Knowledge & The Discourse of Language*, Translated by A.M. Sheridan Smith. NY: Pantheon Books, 1972: 21-30.
7. Roland Barthes, "Theory of the Text", *Untying the Text: A Post-Structuralist Reader,* Edited by Robert Young, London: Routledge and Kegan Paul, 1981: 31-47.

8. Hans-Georg Gadamer, *Philosophical Hermeneutics.* Translated by David Linge, Berkley: California UP, 1976.
9. Louis Althusser, “Ideology and Ideology State Apparatuses”, *Lenin & Philosophy,* London: New Left Books, 1971.
10. Pierre Machery, *A Theory of Literary Production,* London: Routledge and Kegan Paul, 1978.